أدبية النقد ونقد الأدب
قراءة في كتاب "شعرية السرد في التراث العربي"

د. عبد العزيز البديوي

غالبًا ما تسيطر روح العاطفة والإحساس على العمل الأدبي ومؤلفه، وفي المقابل نجد غلبة روح العقل والتمحيص والتدقيق وسيطرتها على العمل النقدي والناقد الذي يتناول العمل الأدبي بالنظر والكشف عن جمالياته وأسراره، وهو ما يثير مفارقة عجيبة في نفسي؛ إذ كيف يمكن للناقد أن يحتكم إلى معايير عقلية في تعامله مع عمل يحتكم مؤلفه إلى معايير عاطفية أو نفسية أو وجدانية! والبَوْنُ بينهما شاسع.

كانت هذه المفارقة حاضرة في ذهني كلما طالعت عملًا نقديًا أو إسهامًا من الإسهامات التي تُقَدَّم في مجال النقد الأدبي، وعلى الرغم من كثرة التفكير فيها وحضورها الذهني بشكل كبير؛ فإنني لم أصل إلى نتيجة يمكن أن يطمئن إليها قلبي أو أن يسكن بها فؤادي، حتى أهداني أستاذي الدكتور أحمد عبد العظيم رومية[١] كتابه: "شعرية السرد في التراث العربي .. دراسة في كتاب الاعتبار لابن منقذ"[٢]، فوجدت فيه ضالتي التي طالما أرقتني وأرهقتني وشغلت فكري؛ حيث إنني وجدت بين يدي عملًا نقديًا كُتِب بروح أدبية وعقل علمي، فجمع من المحاسن أطرافها، ومن الفوائد أعلاها، ومن الفرائد أنواعها وأشكالها.

وكان أولَ ما أخذني إليه عنوانُه الكاشفُ عن مكنونه؛ فقد اشتمل عنوان الكتاب على ما يدل دلالة قاطعة على إدراك مؤلفه طريقةَ التعامل مع الأدب بنقد أدبي يلائم النص الأدبي وروحه، بالإضافة إلى كشف العنوان عن ارتباط المؤلف بتراثه، ويمكن عرض ما أثاره العنوان في نفسي بشكل من التفصيل، وذلك على النحو التالي:

أول ما يطالعنا في العنوان كلمة "**شعرية**" بجوار كلمة "**السرد**"، وقد أثار ذلك بداخلي كثيرًا من الأسئلة؛ إذ "**الشعرية**" هي كما يقول جون كوين: "علم موضوعه الشعر"[٣]، و"**السرد**" هو كما يقول يان منفريد: "ما يعرض لنا قصة، والقصة هي تتابع أحداث تستلزم شخصيات؛ لذا فالسرد هو وسيلة اتصال تعرض تتابع أحداث تسببت فيها أو جربتها الشخصيات"[٤]، فبالنظر لأول وهلة يبدو في الأمر شيء من المفارقة والتباعد؛ فالشعر نوع أدبي له أسسه وقواعده وضوابطه، والسرد نمط أو شكل أدبي له أسسه

---

(١) أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الألسن، جامعة عين شمس، وكانت له إسهامات بجوار الدكتور محمد العبد في إنشاء "مجلة جسور .. نشرة غير دورية محكمة في اللسانيات والنقد الأدبي" وعَمِلَ مديرَ تحريرِها لفترة ليست بالقصيرة، وله عدد من المقالات والأبحاث والدراسات والكتب المنشورة، بالإضافة إلى حصوله على عدد من الجوائز في مجال النقد الأدبي.

(٢) أحمد عبد العظيم رومية، شعرية السرد في التراث العربي .. دراسة في كتاب الاعتبار لابن منقذ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

(٣) جون كوين، النظرية الشعرية، ترجمة: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠م، صـ ٢٩.

(٤) يان منفريد، علم السرد .. مدخل إلى نظرية سردية، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١١م، صـ ١٢.

وقواعده وضوابطه التي هي بالضرورة تختلف عن ضوابط الشعر، ولكن سرعان ما يزول هذا الشعور بالوقوف على المراد من كلمة "شعرية"؛ فقد أصبحت ذات دلالة واسعة، فقد أخذت تتسع في مفهومها، حتى أصبحت "تطلق على كل موضوع يعالج بطريقة فنية راقية ويمكن أن يثير هذا اللون من المشاعر"(١). ومن ثَمَّ حدث التناغم بين الكلمتين، فالسرد طريقة راقية تثير في النفس مشاعرها وإحساسها.

ثم نجد كلمة "**التراث**" التي تحدد الحقل التطبيقي العام، قبل أن يأتي ذكر "**كتاب الاعتبار لابن منقذ**" الذي يخصص هذا العموم، ولا شك أن الأصل في العنوان الاختصار والاختزال، فلماذا العموم الذي يَتْبَعُهُ الخصوص؟ ولماذا كلمة "في التراث" دون غيرها من الكلمات مثل "في الأدب"؟ لأن كلمة التراث تحمل دلالة واضحة على الرصيد المعرفي الذي يريد المؤلف أن ينتسب إليه وأن يعتز به، وتكشف عن حيرة في اختيار النص التطبيقي من درر النصوص التي تركها لنا أجداد قد أفنوا أعمارهم في ترصيع الكلمات وتحبير النصوص وتزيين المعاني، كما تكشف عن تعدد ما في التراث من أعمال هي حقيقة أن تُدرس بهذا النمط من أنماط الدراسات النقدية، وإن لم تنتمِ إلى الحقل الأدبي بشكل مباشر، ثم جاءت كلمة: "كتاب الاعتبار لابن منقذ" لتفصل في القضية وتحدد النص التطبيقي المختار.

كل هذا أثاره العنوان في نفسي قبل أن أتصفح صفحاته وأبصر حروفه وكلماته، وأقف على جمله ومعانيه، وأكتشف إحكامه وإتمامه. فلما طالعت الكتاب وجدته يتعامل مع العمل الأدبي بأدبية نقدية، تكشف عن مكنونه، وتُجَلِّي للقارئ أمورًا ما كان ليقف عليها دون أن يجد عونًا من ناقد يتحلى بروح أدبية وعقل نقدي.

فلما وقفت على التمهيد وجدته يتناول نقطتين مهمتين، هما محور الدراسة وأساسها؛ حيث جاءت النقطة الأولى بعنوان: "الكاتب والكتاب"، وهو بجمعه بينهما في نقطة واحدة وعدم إفراد كل منها يدلل على الترابط بين العمل الأدبي ومؤلفه؛ فالمؤلف هو الوعاء الذي أخرج لنا العمل مصبوغًا بخبراته وتجاربه وعقله وروحه، فهو جزء لا يمكن فصله عن صاحبه. وكان حديثه عن الكاتب حديثًا يكشف عن طبيعة شخصيته من جوانب متعددة، فقد تحدث عن طبقته التي ينتمي إليها، وصفاته وخصاله، ودوره الوظيفي في المجتمع، ودوره الثقافي وإنتاجه العلمي والأدبي، ذاكرًا قائمة بأعماله. وعلى الرغم من الاختصار الذي عرض به الدكتور أحمد عبد العظيم حياةَ ابنِ منقذ، فلم يأتِ اختصاره مخلًّا، بل وقف على ما يفيد الدراسة من جوانب في ترجمته وحياته. ثم تحدث عن الكتاب، عارضًا أقسامه الثلاثة بشيء من الإيجاز ، واقفًا على الهدف من تأليفه، مستخرجًا هذا الهدف بدقة نظره من الكتاب ذاته؛ فقد قال في بداية حديثه عن الهدف من الكتاب: "الغرض من تأليف هذا الكتاب هو ما ينبئ به عنوانه (الاعتبار)، ثم ما نجده من تعليقات داخلية على ما يورده من أخبار قصصية ومشاهدات، وانتهاءً بما صرح به أسامة في نهاية القسم الأول من كتابه، وذلك أن يظل هذا الكتاب بما يحويه من حوادث وأخبار ومفارقات عبرة لمن

(١) جون كوين، النظرية الشعرية، صـ ٢٩.

يقرؤه..."[1]. وهذا النص يدل على عدم اكتفاء الدكتور أحمد عبد العظيم بالوقوف على الأدلة الصريحة، بل يُعمق الفكر ويدقق النظر في قراءته للكتاب.

أما النقطة الثانية فجاءت بعنوان: "**إشكالية المصطلح**"، وقد تناول فيها ثلاثة محاور، أولها هو: "مصطلح الشعرية .. تاريخه ومفهومه"، عرض فيه مفهوم الشعرية وما يتعلق بها من مفاهيم وإجراءات كـ "أدبية الأدب"، و"الوظائف اللغوية"، و"لغوية النص الأدبي" أي الظواهر اللغوية التي تشكل الوظيفة الشعرية في النص الأدبي خاصة وفي النص بشكل عام. وعلى الرغم من جدية تناول مفهوم مصطلح "الشعرية"، فإن الحديث عن تاريخ المصطلح كان غائبًا بدرجة كبيرة، وهو ما يجعل وضع كلمة "تاريخه" في عنوان هذا المحور محل شك وريبة، يتبعهما نقد واستهجان. ثم جاء المحور الثاني بعنوان: "الخطاب/ النص .. تداخل مصطلح"، كاشفًا عن العلاقة بين مصطلح "الخطاب" ومصطلح "النص" وما بينهما من تمايز وتداخل. ويعد هذا المحور – في حقيقة الأمر – تمهيدًا للمحور الثالث الذي جاء بعنوان: "علم السرد .. منظومة اصطلاحية"، وكان أحق بالمحور الثاني أن يندمج مع المحور الثالث، فيُقَدَّم لنا الفرق بين الخطاب السردي، والنص السردي؛ حتى يكون الحديث ألصق بالدراسة وموضوعها. وعلى كل حالٍ فإن الدكتور أحمد عبد العظيم كان مدركًا للخِضَمِّ الذي وضع قدمه فيه، وذلك حين قال: "الحديث في علم السرد يستدعي قائمة طويلة من المصطلحات ذات الصلة بالإبداع القصصي وآلياته"[2]، ولكنه كان حكيمًا حين خاضه، ناظرًا هدفه، عالمًا ما يصنع، ويتضح ذلك من عمده إلى مجموعة من المصطلحات التي تتوافق مع الدراسة وتتلاءم مع طبيعتها.

وبمراجعة التمهيد على عنوان الدراسة نجد أنه قد استوفى عناصره، غير أن ثمة تقديمًا وتأخيرًا كان يجب أن يكون، ولم يكن؛ فإن العنوان ينص على أن هذه الدراسة هي بحث في "شعرية السرد في التراث"، وأن "كتاب الاعتبار لابن منقذ" جاء نموذجًا يمثل هذا التراث الذي يشُقُّ على الباحثين حصره، وهو ما يعني أن محور الدراسة هو دراسة "شعرية السرد" فكان يجب أن يتقدم في التمهيد على الحديث عن "الكاتب والكتاب"، ولعل ما يبرر صنيع الدكتور أحمد عبد العظيم هو ميله إلى التراث وحبه له أكثر من ميله إلى النظرية الشعرية أو النظرية السردية، وهما أساس نظري ناتج عن جهود غربية في المقام الأول.

وينقسم الكتاب بعد التمهيد إلى فصلين، يشتمل كلٌ منهما على نقاط تؤدي الهدف المراد منه، والفصلان متكاملان متناسقان مترابطان؛ حيث يجعل الفصلُ الأولُ الكاتبَ محورَه، ويجعل الفصلُ الثاني الخطابَ محورَه، وبذلك نجد أنفسنا مع الكاتب في فصل، ومع العمل في النص الذي يليه، مع الأخذ بعين الاعتبار تدخل كلٍ منهما مع الآخر في كل المواضع، ولكن التقسيم ينظر إلى ما يغلب عليه الفصل، ويجعله ركيزته. وكانت الدراسة بحاجة إلى فصلٍ ثالث يتناول علاقة المتلقي بالكاتب وعمله؛ لتكتمل دراسة عناصر الاتصال: الكاتب والنص والمتلقي، وفقًا للنظرية الشعرية في التعامل مع النص السردي. وبالفعل قد تناول الدكتور أحمد عبد العظيم العلاقة بين الكاتب والقارئ في أحد عناصر الفصل الأول.

---

(١) أحمد عبد العظيم، شعرية السرد في التراث، صـ ١٢.
(٢) السابق، صـ ٢٩.

جاء الفصل الأول بعنوان: "**الكاتب في النص والموقف من الأحداث**"، وتناول ثلاثة محاور بعد مدخل مختصر علل فيه فلسفته في عناصر الفصل ومحتوياته، فقال: "الحديث عن الكاتب أو المؤلف في النص حديث حيوي يتصل بعملية إنتاج النص الأدبي، هو المرسل أو الكاتب، الذي يصوغ مرسلته على نحو محدد ومميز وفق نسق مختار تظهر فيه ذاتيته..."[(١)]، وكانت أول هذه المحاور بعنوان: "الكاتب والنص"، تناول فيه النوع النصي لكتاب الاعتبار، والعنوان وبنية النص الدلالية، والتقنيات الفنية في بناء نص الاعتبار، وبذلك نجد الحديث عن النص حاضرًا، ولكنَّ الحديث عن كاتب النص كان غائبًا غيرَ حاضر بالشكل المُنتظَر. أما المحور الثاني فكان بعنوان: "الكاتب والسارد"، وفيه عرض للعلاقة بين الكاتب والسارد أو الراوي، وما يتولد عنهما من وسيط ثالث يطلق عليه "المؤلف الضمني"، كما اشتمل على عرض بعض تصنيفات الراوي. والمحور الثالث بعنوان: "الكاتب والقارئ"، وفيها عرض متسق ومنسجم لأنماط القارئ/ المتلقي في مقابل الكاتب/ المؤلف/ المبدع.

كما جاء الفصل الثاني بعنوان: "**تداخل الخطابات**"، وتناول ثلاثة محاور، بعد مدخل قصير عرض فيه الأسباب التي كانت وراء تمايز الأنواع المختلفة من الخطابات، وما نتج عن هذه الأسباب من أنماط ونماذج مختلفة من الخطابات، كما أوضح تداخل هذه الأنماط المختلفة مع الخطاب السردي، فقال: "هذا التباين والتمايز قد أفرز نماذج مختلفة من الخطابات، فإذا كان الخطاب السردي جنسًا أدبيًا أو بنية لغوية عامة لها سماتها وخصائصها اللغوية والفنية، فإنه يمثل خطابًا عامًا جامعًا يتضمن أنماطًا خطابية أخرى من خطاب وصفي وخطاب عرضي وخطاب جدلي تتفاعل في داخله، ويعمل كل خطاب منها في إطار السرد، من أجل تحقيق غايات ووظائف لغوية تواصلية وجمالية خاصة به..."[(٢)]، ثم جاءت المحاور الثلاثة لتعرض تشابك الخطابات وتعانقها، فتناول المحور الأول التداخل بين الخطاب الوصفي والخطاب السردي، مُفَصِّلًا وظائف الوصف في خدمة الخطاب السردي، متحدثًا عن قيام الوصف بوظيفة التعيين للحدود، والتشويق، والتبئير، والتزيين[(٣)]. أما المحور الثاني فتناول العلاقة بين الوصف وجدلية الخطاب، وجاء هذا المحور تطبيقيًا خالصًا دون التقديم بمدخل نظري كبير. ثم اختتم الدكتور أحمد عبد العظيم الفصل الثاني بالمحور الثالث الذي جاء بعنوان: "الخطاب العرضي والخطاب الجدلي"، وكان هذا المحور من أكبر المحاور من حيث عدد الصفحات، وأكثرها ثراءً من حيث ما يقدمه من فرائد علمية، فقد تناول تقنيات الخطاب العرضي بشيء من التفصيل، كما تناول الخطاب الجدلي والإقناع وتقنياته المنطقية والعقلية، وآلياته الوجدانية، وآلياته اللغوية.

ولم يكن الدكتور أحمد عبد العظيم في تناوله لفصول الكتاب ومحاوره ونقاطه مُغرِقًا في التنظير متجاهلًا التطبيق، كما لم يكن مهملًا الأسس النظرية التي تعد قاعدة البناء التي يمكن أن يقف عليها الجانب التطبيقي، بل كان عمله مُحكمًا؛ حيث مزج النظرية بالتطبيق، فجاء الكتاب قوي البنيان متماسك الأركان، وهو يقدم الحديث عن الجانب النظري حتى يفهم القارئ ويعي حدود النظرية قبل الغوص في

---

(١) السابق، صـ ٣٣.
(٢) السابق، صـ ١٢١.
(٣) انظر: السابق، صـ ١٢٥، ١٢٦.

جوانبها بشكل عملي. واعتمد الدكتور أحمد على كثير من نصوص ابن منقذ في كتاب الاعتبار ؛ للوصول إلى الهدف المراد، وهو الكشف عن كل أشكال شعرية السرد الموجودة في هذا العمل. ولو أردنا التدليل على هذه المنهجية التي اتبعها في تأليف الكتاب القائمة على المزج بين الجانب النظري والجانب التطبيقي مع جعل المساحة الكبرى للجانب التطبيقي، لكفانا النظر إلى نموذج واحد مثل حديثه عن المحور الثاني في الفصل الأول، وهو: "الكاتب والسارد"؛ حيث تناول كل ما يتعلق بالجانب النظري الذي يخص الكاتب والسارد وأنواعهما والوظائف السردية لهما، ثم انتقل إلى ذكر عدد من النماذج التطبيقية من كتاب ابن منقذ، متناولًا إياها بالنقد والكشف عما فيها من خصائص وسمات وقيم أدبية وسردية. وفي بعض الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى التعقيب، كما حدث ذلك، على سبيل المثال، بعد ذكره لعدد من النصوص التي أتى بها شاهدًا على تقنية "الإجمال والتفصيل" من التقنيات الفنية في بناء نص الاعتبار التي تناولها في المحور الأول من الفصل الأول، حيث قال: "**تعقيب:** كما تبين من قبل فإن المادة الخام التي استخدمها ابن منقذ في رسالته الاعتبار هي – بنظرة أولية – قطعة من التاريخ، من تاريخ أسامة بن منقذ نفسه بما تضمنه من حوادث ومشاهدات وخبرات ... فهل يعني ذلك أن ابن منقذ كان يكتب تاريخًا...؟! إن الإجابة عن مثل هذا السؤال ليست من السهولة بحيث تختزل في صيغة الجزم بـ نعم أو بـ لا، وإنما يحتاج الأمر إلى شيء من التوضيح..."[1].

واختتم الدكتور أحمد عبد العظيم كتابه بخاتمة مُحكمة البناء والأسلوب، تناول فيها ما انتهى إليه من نتائج، دون إطالة مملة، ودون تقصير مخل، تكشف عن رجاحة عقله وقوة بصيرته، وقدرته على إدراك ما يقدمه. ثم ألحق بهذا العمل قائمة ذكر فيها مراجع الدراسة التي جاءت متنوعة بين المراجع العربية والمترجمة والأجنبية والأبحاث المنشورة في الدوريات والمواقع الإلكترونية والرسائل الجامعية المخطوطة، مما يدل على أنه لم يترك بابًا يمكن الوصول إلى هدفه من خلاله إلا وطرقه. كما جاءت المراجع متنوعة بين ما هو تراثي وما هو حديث، وبين ما هو في الأدب وما هو في اللغة، وبين ما هو متعلق بالجنب النظري وما هو متعلق بالجانب التطبيقي، بالإضافة إلى وجود عدد لا بأس به من المراجع التي تتناول السرد وعناصره بشكل مفصل دقيق، وهو ما يؤكد على إلمامه بجوانب النظرية وحضورها في ذهنه، وهو ما كان حاضرًا في تطبيقاته بشكل جلي.

وأعود فأكرر ما قد افتتحت به كلامي: إنني حين أقف أمام كتاب "شعرية السرد في التراث" للدكتور أحمد عبد العظيم، فإنني أقف حائرًا معجبًا زاهيًا؛ لأنني أما عملٍ نقدي تسيطر عليه روح الأدبية المعتمدة على روح الأدب وعقل النقد.

ولا يسعني في ختام كلماتي إلا أن أدعو الله أن يتقبل هذا العمل وأن يكتب له القبول في الأرض ولصاحبه الحمد في الأرض والسماء، وأن يغفر لي إخلالي واختزالي في عرض هذا العمل وتقديمه للناس، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه سبحانه نعم لمولى ونعم النصير، وهو سبحانه من وراء القصد،،،

---

(١) السابق، صـ ٨٣.